الفصل الحادي والعشرون

شخصية الزعيم

لا نزاع في أن مصطفى كامل هو من عظماء الرجال، ومن زعماء الشعوب وقادتها الأبطال في ميادين الحرية والاستقلال، ولا مراء في أنه باعث الحركة الوطنية التي ظهرت في مصر عقب الاحتلال البريطاني.

لقد أوضحنا في الفصل الأول من الكتاب كيف ظهر واضطلع بأعباء الدعوة الوطنية، في عصر لم يكن مواتيًا لها ولا مستعدًّا لمناصرتها، فهذه الشخصية الكبيرة التي حملت عبء الجهاد، ودعت الأمة إلى الانضواء تحت لواء الحرية والاستقلال، في وقت تحالفت فيه أسباب اليأس والجمود، يجب أن تكون شخصية بالغة منتهى القوة؛ لكي تستطيع أن تشق لدعوتها طريقًا وسط هذه العوامل المثبطة للعزائم، فما هي العوامل التي تألفت منها هذه الشخصية الفذة؟

إنَّ شخصية مصطفى كامل تتركز في قوى ثلاث، هي التي ساعدته على النجاح في عمله العظيم، وهي إيمانه برسالته، وأخلاقه وصفاته، ثم وطنيته الصادقة.

إيمانه برسالته

فإيمانه برسالته، هو أبرز الجوانب في شخصيته، ويبدو لك هذا الإيمان من ذلك الكتاب الذي بعث به إلى مدام جولييت آدم في (١٢ سبتمبر سنة ١٨٩٥م)، وهو بعد في الحادية والعشرين من عمره؛ إذ يقول فيه:

«إني لا أزال صغيرًا؛ ولكن لي آمال كبار، فإني أريد أن أوقظ في مصر الهرمة مصر الفتاة، هم يقولون: إن وطني لا وجود له؛ وأنا أقول يا سيدتي: إنه موجود، وأشعر بوجوده بما آنس له في نفسي من الحب الشديد الذي سوف يتغلب على كل حب سواه، وسأجود في سبيله بجميع قواي، وأفديه بشبابي، وأجعل حياتي وقفًا عليه».

فهذا الكتاب الوجيز في عبارته، الرائع في أسلوبه، يطالعك بقوة الإيمان الذي يملأ قلب صاحبه، فهو مؤمن بحياة الوطن، ولو خالف الناس جميعًا، مؤمن برسالته إيمانًا جعله يجود في سبيلها بشبابه وحياته، وقد لازمه هذا الإيمان طول حياته على تعاقب السنين، وهذا هو سر نجاحه؛ قال في سنة (١٩٠٤م): «سأبقى حتى الممات حاملًا لواء الاستقلال؛ إذ أجد حياتي في هذه العقيدة، وبغير هذه الشعلة الوطنية لا أستطيع الحياة».

وكتب إلى مدام آدم في (١٣ أغسطس سنة ١٩٠٦م) يقول: «غدًا تذكار ميلادي إذ أبلغ الثانية والثلاثين، وما عساي أن أعيش أيضًا لأخدم مصرنا العزيزة؟ وعلى كل حال فإني لا أترك لحظة تمر من حياتي دون أن أغرس حبها في قلوب مواطني، وأتمم عملي إلى النهاية».

فهذا الإيمان هو قوام شخصيته، ومصدر قوته ولولاه لما تابع الجهاد رغم العوامل المثبطة، وهو الذي يسر له تذليل كل عقبة اعترضته في جهاده، وجعله يضطلع بأعباء الجهاد المضني، ويسير بالأمة في طريق الحرية والاستقلال؛ قال صديقه الأستاذ «داود بركات» في هذا الصدد: «اعتقد في نفسه القدرة على العمل، فصغر كل كبير في نظره، وأذكر من أقواله يومًا: إن أغسطس قيصر لم يكن كبيرًا لأن أمته كبرته؛ بل لأنه سار أمامها فعرفت أنه كبير».

صفاته وأخلاقه

كان الفقيد شابًّا في مقتبل العمر، قمحي اللون، جميل الطلعة، متوسط القامة، نحيف الجسم، عريض الجبهة، برَّاق العينين، يشع منهما الذكاء وقوة العزيمة.

إنَّ الجانب الأخلاقي هو بلا مراء من أعظم مميزات هذه الشخصية الفذة ولا غرو، فالأخلاق هي سياج الوطنية، وحصنها الحصين، وهي قوامها وغذاؤها

الدائم، ولقد كان مصطفى كامل زعيمًا أخلاقيًّا، وزعيمًا وطنيًّا معًا، فلا جرم أن كانت وطنيته ثابتة كالطود، راسخة كالجبال.

وأبرز أخلاقه وصفاته الشجاعة الأدبية، والصدق، والصراحة، والإخلاص، والصبر وقوة العزيمة والثبات، ثم الوفاء وعلو النفس وعلو الهمة، والجود والكرم، هذه الأخلاق هي قوام وطنيته، وبها استطاع أن يقوم على دعوته، ويثابر عليها، ويناضل عنها طول حياته، ولولا قوة أخلاقه لما أمكنه أن يغالب العقبات، ويقاوم المؤثرات والمغريات.

كان شديدًا في الحق، يحب الصدق والصراحة، ويكره النفاق والرذيلة، يجاهر بما في ضميره بشجاعة أدبية كبيرة، لا يهاب في الحق كبيرًا، وكان مع ذلك وديعًا يخفض جناحه للأصاغر وأواسط الناس، ويعطف عليهم.

كان شديد الذكاء، سريع الخاطر، قوي الذاكرة، بالغ الحجة، عظيم النشاط، محبًّا للعمل، لا يكل منه، ولا يعرف الملل والهوادة.

وكان وفيًّا لأصدقائه، بارًّا بأهله وذويه، يعطف عليهم ويعد نفسه أبًا لهم جميعًا، لم يتزوج في حياته قط، وانحصر حبه العائلي في والدته وأقاربه وذويه، ظهر وفاؤه لوالدته حين مرضتْ؛ فكان مشغول الفؤاد بمرضها، شديد العناية بأمرها، يكتب عن أنبائها إلى مدام جولييت آدم في رسائله إليها، وقد حزن عليها حزنًا شديدًا حين أدركتها الوفاة[1]، كتب في هذا الصدد إلى مدام آدم يقول:

«قد رزئت أكبر رزء في الحياة، فإن والدتي العزيزة، مالكة فؤادي، قد فارقت الدنيا يوم الأحد الماضي، إن حزني لشديد، وحياتي كادت تنقضي!».

فهذا التعبير يدلك على مبلغ وفائه لوالدته، وحبه لها، وتعلقه بها، وحزنه عليها، وهذا لعمري أبلغ مظهر لوفاء الإنسان في هذه الدنيا.

(١) توفيت يوم الأحد ١٢ مايو سنة (١٩٠٧م).

ويبدو وفاؤه لأهله وذويه من رسائله إلى صديقه وزميله في الجهاد محمد بك فريد؛ فإنه لا يكاد يخلو كتاب منها من سؤاله عنهم، وعنايته بهم، واهتمامه بكل صغيرة وكبيرة من شئونهم، على كثرة مشاغله ومهامه الجسام.

كان جوادًا كريمًا يعطف على الفقراء والمعوزين ويحبهم، فكان لهم نصيب وافر في مدرسته؛ إذ خصص للمجانية قسمًا كبيرًا لتعليم أولادهم، وإليه ينسب فضل كبير في مبدأ الإسعاف، فقد عطف على قتيل حادثة الهماميل بالإسكندرية فأسعف أهله بماله ومساعيه، وعنى بتعليم ابنه بفضل ذلك المبدأ الكريم.

وطنيته

أمَّا وطنيته فلا نرانا في حاجة إلى التحدث عنها؛ فلقد خصصنا لها هذا الكتاب جمعيه، إذ هو سجل لوطنيته الكبرى، فالوطنية تبدو في كل ظاهرة من ظواهر حياته، وفي كل حركة من حركاته، وكل خاطرة من خطرات نفسه ولا غرو فقد ملكت عليه لبه ومشاعره وتفكيره، فكانت حياته هي الوطنية، واقتبست منها الأمة نهضتها الوطنية، وهو الشعلة التي انبثق نورها في أرجاء وادي النيل منذ ستين سنة، فأضاءت النفوس، وأحيت فيها الشعور الوطني، وحفزتها إلى الحياة والكرامة والجهاد القومي، بعد سنوات طويلة من الانحلال الوطني العام.

كانت وطنيته أسبق وأقوى من الجيل الذي ظهر فيه، وأقوى من الحوادث التي اعترضته، فليس يخفى أن هذه الحوادث كانت في مجموعها سلسلة هزائم، مثبطة للعزائم، على أنه قد تغلب عليها بقوة الوطنية والأخلاق، وكان يزداد ثباتًا في الكفاح والنضال، كلما ازدادت في طريقه العقبات، وهنا وجه البطولة في تاريخه.

وتبدو قوة وطنيته في مثابرته على الكفاح وفي هذه الحركة الدائمة التي لم ينقطع عنها، والتي بينا أدوارها ومراحلها في فصول هذا الكتاب، فهذه الحركة التي لم يعترها الكلال فترة ما خلال الثماني عشرة سنة التي قضاها في الجهاد، هي عنوان

وطنيته، وثمة عنوان آخر لها، وهو أن جهاده كان خالصًا لله والوطن، إذ كانت الحركة الوطنية لا ترمي في ذلك الحين إلى الحكم والمناصب، أو الجاه والمنافع؛ بل كانت سلسلة متصلة الحلقات من المتاعب والتضحيات، ومن هنا تتجلى بطولتها، ويسطع نورها وروعتها، فهذه الروح -روح التضحية والإخلاص- هي رأس مال الشعوب في حياتها القومية؛ لأن الأمم إنما تتميز في ميادين الرقي والعظمة بمقدار إخلاص أبنائها لأوطانهم، وتفانيهم في خدمتها، وإيثارهم الصالح العام على منافعهم الشخصية.

سبيله إلى الوطنية

كان الفقيد لا يهتم طوال حياته إلا بالوطنية يبثها في نفوس النشء والجيل، وكانت سبيله إلى غرسها في النفوس الدعوة والخطابة والصحافة والتأليف، والقدوة الصالحة في الاستمساك بالعروة الوثقى، كان معلمًا للجيل، أرشد الأمة إلى المثل العليا في حب الوطن والاخلاص له، ولذلك كان يعني بالتاريخ الوطني لجميع الشعوب، يستخلص منه دروس الوطنية الصادقة، ويلقنها لبني مصر، كتب في هذا الصدد إلى مدام جولييت آدم في (٢٤ ديسمبر سنة ١٨٩٩م) حين اعتزم إصدار اللواء يقول: «أشكرك كثيرًا إذا تفضلت بإرشادي إلى المؤلفات الخاصة بالتاريخ القومي والقصص الوطنية عن كل البلاد؛ لكي ألقن الشعب إياها، فإنه يجب أن أنشر المثل العليا في الوطنية».

وكتب إليها في (٢٨ ديسمبر) في تلك السنة يقول:

«إني أعمل الآن كثيرًا، وأملي أن يصير (اللواء) أول جريدة في الشرق، فإني أريد له أن يكون في وقتٍ واحد عاملًا للوطنية المصرية، وواسطة بين العالم الأوربي والعالم المصري، ولهذا رجوت منك أن تكتبي لنا بين آنٍ وآخر مواعظ وطنية مما جرى في عصرك أو في بطون التاريخ».

وكان في دعوته وجهاده في مقالاته وخطبه وأحاديثه، يسمو بالوطنية ويوجهها إلى المثل العليا، وينزهها عن الخصومات والأحقاد الشخصية ويربأ بها عن الطعن في أعراض الناس وشخصياتهم، كان عف القلم عف اللسان، وفي ذلك يقول في خطبته بالإسكندرية سنة (١٨٩٦م): «إني أترفع عن أن أدافع عن بلادي بالطعن والسباب».

وكان يحبب النفوس في الحرية، ويرغبها في الاستقلال الشخصي، ليمهد الجيل إلى الاضطلاع بأعباء الاستقلال القومي، ومن هنا جاء استحثاثه الشبان على العمل الحر والاعتماد على النفس، وترغيبهم عن التواكل والتطلع إلى الوظائف، وله في ذلك خطب ومقالات عدة، أهمها خطبته بالإسكندرية يوم (٨ يونية سنة ١٨٩٧م) إذ قال فيها:

«اتركوا الأبناء معشر الآباء في الحياة الحرة، اتركوهم يخدموا الوطن ويخدموا أنفسهم في غير دائرة الوظائف، اتركوهم أحرار غير مقيدين بقيود الرواتب، ابعثوا بهم إلى الخارج ليدرسوا التجارة والصناعة، ويؤسسوا في البلاد المصانع والمعامل، وتزدادوا بذلك شرفًا وفخرًا وتزدادوا أمام الله وأمام الوطن مثوبة وأجرًا».

وكان كثير الحث على الاستقلال الاقتصادي؛ قال في هذا الصدد في خطبته سالفة الذكر: «إذا أهملت تربية الأمة وبقي الكبراء منعكفين على إدارة شئونهم الخاصة واستمر الآباء يلقون بالأبناء إلى مهاوي التوظف في الوظائف وبقيت التجارة والصناعة في كساد، ودامت الأمة في حاجة إلى استجلاب لوازمها الضرورية من غير بلادها –دام الانحطاط ودام التأخر ودام الخطر».

بعض كلماته الخالدة في الوطنية

للفقيد كلمات خالدة دلت على تأصل الوطنية في فؤاده، وسارت سير الحكم والأمثال، وقد مرَّ بك بعضها في فصول الكتاب، وسنجمع هنا أهمها شأنًا، وأدلها على شخصيته، مع بيان تاريخ كل كلمة منها:

- «أحرار في بلادنا كرماء لضيوفنا» سنة (١٨٩٥م).

- «إن لي روحًا هي نور الحرية الساطعة لا تستطيع الحياة في ظلمات الظلم والاستبداد» من خطاب له إلى فريد بك سنة (١٨٩٦م).

- «إني أترفع عن أن أدافع عن بلادي بالطعن والسباب» سنة (١٨٩٦م).

- «كل احتلال أجنبي هو عار على الوطن وبنيه» من خطبته بالإسكندرية يوم (٨ يونية سنة ١٨٩٧م).

- «في الرضا بالاحتلال الخيانة والعار، وفي العمل ضد الاحتلال الشرف والفخار» من خطبته المذكورة.

- «قد يكون الرجل صادق الوطنية فقيرًا في المال؛ ولكنه يعيش ويبقى في التاريخ من أكبر سراة الوطنية» من خطبته بالقاهرة يوم (٨ يناير سنة ١٨٩٨م).

- «إذا لم نقتطف ثمرة عملنا وجهادنا في حياتنا، فإننا على الأقل نضع الحجر الأول لمن يأتي بعدنا» من رسالة له سنة (١٨٩٨م) إلى أخيه علي بك فهمي كامل.

- «لا معنى للحياة مع اليأس، ولا معنى لليأس مع الحياة» من خطبته بالقاهرة يوم (٢٣ ديسمبر سنة ١٨٩٨م).

- «الحياة جهاد، والعمر قصير، وخير الناس من جاهد في سبيل بلاده وعمل لخيرها وناضل عن حقوقها» من خطبته المذكورة.

– «ليست الحرية بعزيزة على قوم يعملون للحصول عليها ويجتهدون في نوالها، وليس بعزيز على المصريين أن يفكوا قيود بلادهم ويعيدوا إليها استقلالها ومجدها، فالصخرة الضخمة تذوب وتتفتت بسقوط المياه عليها نقطة بعد نقطة» من خطبته المذكورة.

– «الأمل دليل الحياة ورائد الحرية» (اللواء ٨ إبريل سنة ١٩٠٠م).

– «إن قيام كل رجل حي الشعور شريف الميول بواجباته نحو هذ البلاد العزيزة يرد إليها حريتها ومجدها وعزها» (اللواء ٢٣ إبريل سنة ١٩٠٠م).

– «سأستمر بمشيئة الله طول حياتي ولو بقيت وحيدًا أخطب في الصحراء وأكتب على صفحات الماء، ذلك الذي عرف فيه المصريون الخادم الأمين للوطن العزيز» (اللواء ١٣ أغسطس سنة ١٩٠٣م).

– «الوطنية شعور ينمو في النفس، ويزداد لهيبه في القلب، ويرسخ في الفؤاد كلما كبرت هموم الوطن وعظمت مصائبه» من خطبته سنة (١٩٠٤م).

– «إن روحي تتغذى من حب الوطن وبغيره لا أستطيع الحياة؛ إذ لا قيمة للحياة بغير هذا الحب الرائع العظيم الذي يفيض على المرء كل سلوى وكل سعادة حتى في شقائه، وبخاصة في الشقاء، حيث لا يجد الإنسان القوة والأمل إلا في هذا الحب» سنة (١٩٠٤م).

– «ما دامت هذه الشعلة والوطنية تغذيني وتؤازرني، فإني لا أهاب شيئًا ولا أحدًا في الوجود» سنة (١٩٠٤م).

– «من أشق الأعمال أن يجاهد المرء ضد الزمن والحوادث والناس» سنة (١٩٠٤م).

– «سأبقى حتى الممات حاملًا لواء الاستقلال؛ إذ أجد حياتي في هذه العقيدة، وبغير هذه الشعلة الوطنية لا أستطيع الحياة» سنة (١٩٠٤م).

- «لو انتقل فؤادي من الشمال إلى اليمن، أو تحولت الأهرام عن مكانها المكين، لما تغير لي مبدأ ولا تحول لي اعتقاد؛ بل تبقى الوطنية رائدي ونبراسي ويبقى الوطن كعبتي ومجده غاية آمالي» (اللواء ١٨ مايو سنة ١٩٠٦م).

- «إن سلاسل الاستعباد هي سلاسل على كل حال، سواء كانت من ذهب أو من حديد» من كتابه إلى السير هنري كامبل بانرمان سنة (١٩٠٧م).

مختارات من خطبته بالإسكندرية سنة (١٩٠٧م)

- «إننا لا نعمل لأنفسنا بل نعمل لوطننا، وهو باق ونحن زائلون، وما قيمة السنين والأيام في حياة مصر، وهي التي شهدت مولد الأمم كلها، وابتكرت المدينة والحضارة للنوع الإنساني كله؟ إن العامل الواثق من النجاح يرى النجاح أمامه كأنه أمر واقع، ونحن نرى من الآن هذا الاستقلال المصري ونبتهج به وندعو له كأنه حقيقة ثابتة، وسيكون كذلك لا محالة، فمهما تعددت الليالي وتعاقبت الأيام، وأتى بعد الشروق شروق وأعقب الغروب غروب، فإننا لا نمل ولا نقف في الطريق، ولا نقول أبدًا: لقد طال الانتظار».

- «إننا وجهنا قلوبنا ونفوسنا وقوانا وأعمارنا إلى أشرف غاية اتجهت إليها الأمم في ماضي الأيام وحاضرها، وأعلى مطلب ترمي إليه في مستقبلنا، فلا الدسائس تخيفنا، ولا التهديدات توقفنا في طريقنا، ولا الشتائم تؤثر علينا ولا الخيانات تزعجنا، ولا الموت نفسه يحول بيننا وبين هذه الغاية التي تصغر بجانبها كل غاية، نعم لو أخذنا الموت من هذا الدار واحدًا بعد واحد لكانت آخر كلماتنا لمن بعدنا: كونوا أسعد حظًّا منا، وليبارك الله فيكم ويجعل الفوز على أيديكم، ويخرج من الجماهير المئات والألوف بل الآحاد للمطالبة بالحق الوطني والحرية الأهلية والاستقلال المقدس».

- «بلادي بلادي! لك حبي وفؤادي، لك حياتي ووجودي، لك دمي ونفسي، لك عقلي ولساني، لك لبي وجناني، فأنت أنت الحياة، ولا حياة إلا بك يا مصر!».

- «إني لو لم أولد مصريًّا لوددت أن أكون مصريًّا».

- «إن أمة دبت فيها روح الوطنية، وطمحت نفسها للاستقلال لا تموت أبدًا، وإن صواعق السياسة كلها لا تحول ضميرًا لاذ بالوطن عن وجهته».

- «نحن مسلوبون، والإنجليز هم السالبون، ونحن طلاب حق مقدس هم مغتصبوه، فلا سبيل إلا الاتفاق بيننا وبينهم إلا باعترافهم بحقنا ورده إلينا».

- «هل يستطيع مصري أن يتهور في حب مصر؟ مهما أحبها فلا يبلغ الدرجة التي يدعو إليها جمالها وجلالها وتاريخها والعظمة اللائقة بها، ألا أيها اللائمون انظروها وتأملوها وطوفوها، واقرأوا صحف ماضيها، واسألوا الزائرين لها من أطراف الأرض، هل خلق الله وطنًا أعلى مقامًا، وأسمى شأنًا، وأجمل طبيعة، وأجل آثارًا، وأغنى تربة، وأصفى سماء وأعذب ماء، وأدعى للحب والشغف من هذا الوطن العزيز؟ اسألوا العالم كله يجبكم بصوت واحد: إن مصر جنة الدنيا، وإن شعبًا يسكنها ويتوارثها لأكرم الشعوب إذا أعزها، وأكبرها جناية عليها وعلى نفسه إذا تسامح في حقها وسلم أزمتها للأجنبي».

- «قد يرى السفهاء والطائشون أن الانتساب لشعب مستعبد كالشعب المصري مما لا يليق بإنسان، ولكن أي شرف يطمع الحر فيه أكبر من العمل لإحياء الأمة التي سبقت الأمم كافة في العلم والمدنية والأدب؟ أي رفعة يسعى الشريف إليها أسمى من إنهاض شعب كان أستاذ الشعوب البشرية ومربي العالم كله؟».

- «إنَّ مصر جديدة بأن تحب بكل قوة، بكل عاطفة، بكل جارحة، بكل نفس، بكل حياة».

- «لا قوام لأمة ولا سلامة لبلاد إلا بقوة العقيدة الوطنية».

- «إنَّ من يتسامح في حقوق بلاده ولو مرة واحدة يبقى أبدًا الدهر مزعزع العقيدة سقيم الوجدان».

- «الدعوة للاستقلال، وبث الروح الوطنية، هما المؤديان إلى تحقيق آمال الأمة المصرية، فليكن معتقد المصريين جميعًا، أن نجاة مصر لا تكون إلا بهمم المصريين، وإن ارتقاءنا موكول إلى عزائمنا، فلنطلب النهوض من أنفسنا، ولنعمل له بالهمة والصدق والاتحاد».

عبقريته ومكانته السياسية

لم يكن مصطفى كامل زعيمًا وطنيًّا فحسب؛ بل كان زعيمًا سياسيًّا ناضج الفكر، صادق النظر، واسع الاطلاع، ملمًّا بأسرار السياسة الدولية، وهذه ميزة له على كثير من الزعماء الذين سبقوه (في الثورة العرابية)، أو تولوا الزعامة من بعده، ويضارعه في الاطلاع السياسي المغفور له محمد بك فريد، فكلاهما درس القضية المصرية دراسة عميقة قبل أن يضطلع بأعباء الزعامة، ولعلك تلحظ أنه حين عاد إلى مصر عقب حصوله على شهادة الحقوق من فرنسا، جاء ومعه صندوق من الكتب المؤلفة في القضية المصرية ليتزود منها بالحقائق والبيانات اللازمة لخدمة هذه القضية.

وظهر بعد نظره السياسي في المبدأ الذي اتخذه شعارًا لدعوته، وهو الجلاء؛ إذ رأى بثاقب نظره أنه الرمز الصحيح للاستقلال التام، وأن الاستقلال والاحتلال ضدان لا يجتمعان؛ قال في هذا الصدد: «كل احتلال أجنبي هو عار على الوطن وبنيه»، واطرح المبادئ الملتوية والنظريات الخيالية جانبًا، وخالف الكثيرين من معاصريه الذين كانوا يرون مصانعة الاحتلال والتقرب إليه، وجعل الجلاء شعارًا للحركة الوطنية، فهو أول من علم الأمة أنه صخرة النجاة لمصر، وأن الاحتلال الأجنبي هو مصدر العبث باستقلال مصر وكرامتها القومية، وقد أثبتت الحوادث

قديمها وحديثها صحة هذا المبدأ القويم؛ لأن الاحتلال مهما كانت صفته لا يمكن أن يتفق مع الاستقلال والكرامة القومية[١].

ويبدو بعد نظره في تجنبه أخطاء زعماء الثورة العرابية، فقد أدرك من دراسته العميقة للمسألة المصرية أن اصطدام العرابيين والخديوي توفيق كان من أسباب إخفاق الثورة، ومن العوامل التي تذرعت بها إنجلترا لاحتلال البلاد، فكان يعمل دائمًا على إيجاد جو من التفاهم بين الأمة والخديوي عباس الثاني، ويدعو إلى تعلق الأمة بالعرش، ولما وقع الخلف بينهما، بعد أن جنح الخديوي للاستسلام والخضوع للاحتلال، اجتنب هو الاصطدام به، حتى لا يتخذ الاحتلال من هذا الاصطدام وسيلة لإضعاف الحركة الوطنية، أو محاربتها باسم الخديوي.

وكذلك رأى من الحكمة السياسية توثيق الروابط الودية بين مصر وتركيا؛ لكي يتخذ من موقف تركيا وسيلة لمقاومة الاحتلال وإقامة الحجة عليه، وأدرك من مطالعاته التاريخية أن إنجلترا كانت تعمل دائمًا على تعكير العلاقات بين الخديوي توفيق والسلطان، مما أدى إلى إطلاق يدها في مصر، وأن جفاء العلاقات بين مصر وتركيا في عهد إسماعيل، كان من العوامل التي جنحت بتركيا إلى خلعه؛ إجابة لرغبة إنجلترا وفرنسا، فعمل على اكتساب ود تركيا، ما دام الاحتلال في مصر، لكي يضمن ألا تتفق الدولتان على إقرار الاحتلال، كما فعلت فرنسا في الاتفاق الودي سنة (١٩٠٤م)، وقد فصلنا الكلام عن هذه المسألة في الفصل الثامن عشر.

أمَّا سياسته بإزاء فرنسا، فقد كان إلى ما قبل حادثة فاشودة يتوقع تدخلها لصالح مصر، ولذلك كان يأمل العون من ناحيتها حتى سنة (١٨٩٨م)، وكل من كان في موقفه كان محقًّا في هذا الأمل، ولكن بعد أن وقعت حادثة فاشودة سنة (١٨٩٨م) وتراجعت فرنسا أمام إنجلترا، أدرك أن لا فائدة ترتجى منها، وجعل

(١) قال مصطفى النحاس باشا في خطبته التي ألقاها يوم أول يولية سنة (١٩٣٨م): «إنَّ جوهر المسألة المصرية هو الاحتلال والجلاء».

الاعتماد على قوة الأمة وجهادها أساس الحركة الوطنية، وأخذ يطعن على فرنسا وسياستها منذ تلك الحادثة، كتب في هذا الصدد يقول في لواء (١٥ مايو سنة ١٩٠٠م): «إننا انتقدنا دائمًا السياسة الفرنسية وقلنا غير مرة: إنها لا تليق بحكومة الجمهورية، ولولا هذه السياسة العوجاء لما كانت إنجلترا في مصر ولما كنا فيما نحن فيه».

ثم فقد أمله في عدالة فرنسا خاصة وأوربا عامة منذ أن رأى جمود أوربا أمام مأساة (البوير) وتركها إياهم يسحقون أمام القوات الإنجليزية دون أن تأبه بهم، قال في هذا الصدد في عدد (٢٨ أغسطس سنة ١٩٠٠م) من اللواء: «إن المعتمد على أوربا واقف على هاوية عميقة القرار، وإن الوطنية تحتاج إلى أسلحة عدة إذا كانت الشهامة والفضيلة والإقدام أهمها وألزمها، فالحذر والدهاء والتبصر ضرورية لها – بل وحيوية – لكل أمة تطلب الحياة أو تريد الزيادة في المجد والسؤدد، وإذا كانت أمة بلغت من الشهامة وحب الوطن مبلغ أمة البوير وهذا حالها مع أوربا، فكيف بنا ونحن نحتاج لسنين عديدة وأعمال مجيدة لبلوغ مبلغها والحصول على ما لها من المحامد والمزايا».

وكتب إلى مدام جولييت آدم في رسالة له بتاريخ (٢١ يونية سنة ١٩٠٠م) يقول: «إني لا أجد كلمات تسع إعرابي لك عن استيائي من أوربا والمدنية الإنسانية التي قضت بهجر البوير البواسل! أي عار وأي درس لنا نحن الذين طالما كنا نعتمد على أوربا!».

فمصطفى كامل قد دعا الأمة منذ سنة (١٨٩٨م) إلى الاعتماد على النفس في جهادها، ومن الخطأ ما يظنه بعض الكتاب أنه ظل يتعلق بالآمال من ناحية فرنسا حتى سنة (١٩٠٤م)، وهي السنة التي أبرم فيها الاتفاق الودي بين فرنسا وإنجلترا، فإنه على العكس فقد أمله في فرنسا منذ حادثه فاشودة، ولم يفاجئه الاتفاق الودي سنة (١٩٠٤م)، بل زاده قوة على قوته في الكفاح والجهاد.

على أنه مع فقدانه الأمل في تدخل فرنسا وأوربا في المسألة المصرية، كان يؤمن بقوة الدعاية، وأثرها في إحراج مركز الاحتلال وشد أزر الحركة الوطنية، فكان لا يفتأ يبذل الجهود الجبارة ليكسب لمصر الأنصار والأعوان في صحافة أوربا وفي دوائرها السياسية والأدبية، وقد وفق من هذه الناحية توفيقًا عظيمًا يدل على حظ كبير من المكانة الشخصية والمقدرة السياسية، فليس من السهل على أي إنسان مهما كان كبيرًا أن يدرك تلك المكانة التي جعلت الفقيد ينشر مقالاته وأحاديثه في أهم الصحف الأوربية.

لقد كانت كبرى الصحف الفرنسية كالفيجارو والإكلير والطان والديبا وغيرها ترحب بمقالاته وأحاديثه، وكان ينشر بعضها أيضًا في الصحف الإنجليزية، وكان في صيف كل عام يقصد إلى أوربا وتنشر له كبريات الصحف الأحاديث والمقالات عن مصر وشئونها، وتخصص لها مكانًا بارزًا في أعمدتها، وتتناقلها الصحف الأخرى، وكان لا يحل ببلد إلا وتتجه إليه الأنظار ليدلي إلى الجمهور بآرائه عن الحركة الوطنية المصرية التي كان زعيمها وممثلها في الداخل والخارج بلا منازع.

ومن دلائل مكانته السياسية أنه لما وقعت حادثة دنشواي استطاع أن ينشر مقالته الشهيرة (إلى الأمة الإنجليزية والعالم المتمدن) في صدر جريدة (الفيجارو)، فكانت بمثابة صحيفة اتهام للسياسة الإنجليزية في جريدة من أكبر الصحف العالمية، وفي وقت كانت السياسة الفرنسية متجهة وجهة الاتفاق الودي مع إنجلترا، وهذا يدلك على عظم المنزلة التي نالها الفقيد في العالم السياسي.

ولما نشرت له (الفيجارو) في (سبتمبر سنة ١٩٠٧م) كتابه المفتوح إلى السير هنري كامبل بانرمان رئيس الوزارة البريطانية الذي احتج فيه على الاحتلال وطالب الحكومة البريطانية بتحقيق وعودها في الجلاء، تناقلته جرائد الطان والديبا والإكلير والإيكودي باريس والجولوا وغيرها، وعلقت عليه تعليقات تدل على عظم مكانته، وأنشأت الطان في صدده مقالة افتتاحية قائلة: إن العلاقات الأدبية والمادية بين

فرنسا ومصر تعادل ما عند فرنسا من الميل والانعطاف نحو المصريين، وتردد صدى الكتاب في معظم الصحف البريطانية كالتيمس والستاندارد والديلي نيوز والمورننج بوست والمورننج ليدر وغيرها، ونشرته ضمن رسائلها التلغرافية الواردة من مكاتبها بباريس، كما رددت صداه شركة روتر في أرجاء العالم.

وعندما استقال الأستاذ «إدوار لامبير» من منصب ناظر مدرسة الحقوق الخديوية (ص٢٥٢) التقى بالفقيد بفرنسا، وهو الذي قدمه إلى المسيو تارديو مدير جريدة الطان (والذي صار رئيس وزراء فرنسا فيما بعد) لينشر له مقالته عن أسباب استقالته، وقد نشرت بها فعلًا ونشرها الفقيد بأكملها في الايتندار إجبسيان وذى إجبشيان ستاندرد، ونشر تعريبها كاملًا في اللواء في اليوم التالي لظهورها في الطان، وقد ذكر العلامة «لامبير» هذه الحقيقة في حديث له بجريدة الجهاد عدد (٨ مارس سنة ١٩٣٧م) حين حضر إلى مصر لإلقاء محاضراته القانونية تلبية لطلب كلية الحقوق المصرية.

وقبلت جريدة الفيجارو الشهيرة أن تنشر ليتندار إجبسيان كل المقالات التي يكتبها الكاتب الطائر الصيت (بيرلوتي) عن مصر في يوم واحدًا معًا، على حين كانت تنقده المبالغ الطائلة على ذلك.

ولما أوفد الفقيد إلى باريس سيد أفندي على أحد محرري اللواء في بعثة صحفية ليتلقى علوم الصحافة في مدرسة العلوم السياسية بها، وزوده بكتب توصيه إلى أقطاب السياسة والصحافة في فرنسا، فكان كلما قابل أحدهم وسلمه كتاب التوصية قابله بعناية واحترام، لاحترامهم شخصية الفقيد، وقصد إلى إدارة جريدة (الطان)، وهي كبرى صحف فرنسا ومعه خطابان؛ أحدهما لرئيس تحريرها، والآخر لمحررها الأول، فلما أخبرهما أنه رسول مصطفى كامل قابلاه بالحفاوة البالغة، وأخذ رئيس التحرير يقدمه إلى زملائه مبتسمًا قائلًا: «هذا مندوب صديقنا الجليل مصطفى كامل». ولما تلا كتابه أقبل عليه وقال: «إني أحب الباشا من أعماق قلبي، وأود أن

أقوم له بخدمة ولو صغيرة، فاعلم أن أبواب الطان مفتحة أمامك في كل وقت وساعة، وأن أبواب غرفتي لا تقفل في وجهك أبدًا، وقد كلفني رئيسك أن ألحقك بمدرستي العلوم السياسية والصحافة، ومن رأيي أن تقتصر على الأولى؛ لأنك لا تستفيد من الثانية شيئًا، فإذا أتممت العلوم السياسية فعد إلى مصر وتعلم الصحافة في مدرستها الكبرى التي يديرها مصطفى كامل باشا». فهذه المنزلة التي نالها الفقيد لدى أقطاب السياسة والصحافة في فرنسا لا يمكن أن ينالها إلا الرجل العظيم الذي رفعته كفايته الممتازة وشخصيته الفذة إلى ذلك المستوى الكبير؛ ولا غرو فقد كان معروفًا في أوربا بأنه بطل الاستقلال المصري، ويدلك على سمو مكانته في نفوس عظماء الغرب أن الكاتب الفرنسي الشهير بيرلوتي -وكان صديقًا حميمًا له- وضع كتابًا سنة (١٩٠٩م) عن مشاهداته في مصر، وقدم له بكلمة إهداء إلى روح الفقيد قال فيها: «إلى ذكرى صديقي المجيد العزيز مصطفى كامل باشا الذي استشهد يوم (١٠ فبراير سنة ١٩٠٨م) في ميدان الجهاد الشريف عاملًا على رفعة شأن مصر والإسلام». وهي كلمة لا تصدر إلا عن تقدير عظيم، من أديب كبير.

سياسته نحو النزلاء

وكان شديد الحرص على اكتساب ثقة النزلاء الأجانب واطمئنانهم إلى الحركة الوطنية، وفي ذلك قال كلمته المشهورة: (أحرار في بلادنا كرماء لضيوفنا)، وقد وفق توفيقًا كبيرًا في كسب ثقة الأجانب واحترامهم، مما كان يبدو أثره في الصحف الأوربية المحلية. ولا شك أن ظهور زعيم وطني شاب مثقف ثقافة أوربية قد أفاد كثيرًا في الدعاية للحركة الوطنية سواء في أوربا أو في الأوساط الأوربية المحلية، ولذلك كان له أنصار وأصدقاء ومعجبون كثيرون من أعيان الجاليات الأوربية، ومن أقطاب الصحافة والسياسة والقضاء والمحاماة، وقد كان أول زعيم مصري سمعت منه أوربا صوت مصر الحديثة، وكان له من الصحفيين الأجانب في مصر أصدقاء شخصيون عديدون، كالمسيو هيكاليس باشا صاحب جريدة الفارد

إلكسندري، والمسيو برشيه صاحب الجورنال إجبسيان، والمسيو راوول كانيفيه مدير جريدة الريفورم، والمسيو جورج فيسييه مدير الجورنال دي كير وغيرهم.

سياسته الشرقية والإسلامية

كان مصطفى كامل عَلَمًا على الوطنية المصرية، وكان في الوقت نفسه رسول الحرية والجهاد للأمم الشرقية، شديد الغيرة على توثيق عُرى الروابط والتعاون بينها، وكان قوي العقيدة الدينية، قوي الإيمان، ولقد كانت قوة إيمانه من أسباب رسوخ العقيدة الوطنية في فؤاده؛ قال في هذا الصدد ردًّا على حملات الصحف الأوربية على الإسلام لمناسبة مقالات هانوتو: «قد يظن بعض الناس أن الدين ينافي الوطنية، أو أن الدعوة إلى الدين ليست من الوطنية في شيء؛ ولكني أرى أن الدين والوطنية توأمان متلازمان، وأن الرجل الذي يتمكن الدين من فؤاده يحب وطنه حبًّا صادقًا ويفديه بروحه وما تملك يداه». (راجع ص١٥٦).

ويبدو اتجاهه إلى تقوية الروابط بين الشعوب الإسلامية من إصداره جريدة أسبوعية باسم (العالم الإسلامي) كان ينشر بها كل ما يهم الإسلام من المقالات والأنباء.

وكتب في جريدة (الطان) الفرنسية عدد (٨ سبتمبر سنة ١٩٠٦م) مقاله ردًّا على مقالة نشرتها عن الجامعة الإسلامية قال:

«لقد فسرت كلمة الجامعة الإسلامية في أوربا تفسيرًا لا يتفق ومعناها الحقيقي، وإني أعيد هنا ما كتبته في «الفيجارو» و«اللواء» وما قلته في كل مكان من أنه لا يوجد مسلم متنور يعتقد لحظة واحدة أن الشعوب الإسلامية يمكنها أن تؤلف عصبة ضد أوربا، وإني أتساءل: من الرجل العاقل السليم الإدراك الذي يصدق إمكان تغلب الشعوب الإسلامية على كافة الدول الأوربية؟ إن الحقيقة الساطعة الخالصة من كل شيء هي أن حركة الجامعة الإسلامية بالمعنى المقصود منها في أوربا -أي الحرب

الدينية- لا وجود لها بالمرة؛ لأن المسلمين أدركوا من زمان بعيد أنه يستحيل على أية أمة أن تعيش في معزل عن العالم، وأن الأمة التي تحاول ذلك تقضي على نفسها بالموت. أما الشعور الموجود حقيقة وبلا نزاع عند كافة الشعوب الإسلامية فهو شعور انعطافها وحنانها لبعضها البعض، فكل مسلم يرغب من صميم فؤاده أن يرى أبناء دينه معاملين أحسن من المعاملة الحالية، ومعتبرين كجزء حي من الإنسانية ومحترمين في كل مكان ومن كل إنسان، وأنه لما كان لتأخر الشعوب الإسلامية أسباب واحدة، فإن نهضتهم تكون بوسائل واحدة، وإن هذه النهضة لا تصير حقيقة تشاهد بالعيان بفضل أوهام تأليف عصبة إسلامية ضد المسيحية؛ بل بالتعليم والنور، وبما أن الإسلام ليس عقيدة دينية فقط، بل قانون اجتماعي، فإن إحياء الأفكار ونشر المعارف لا يتمان إلا بإظهاره على حقيقته، وإن ميل كل مسلم لأبناء دينه أمر طبيعي وشرعي، ولا يوجد رجل منصف ينتقد ذلك الميل. أما عن تهمة التعصب الإسلامي المزعوم في مصر، فإني أؤكد أن بلادًا كثيرة في أوربا تعرف التعصب العنيف الممقوت، في حين أن مصر لا تعرفه، فليس عندنا أحزاب ضد اليهود، ولا اشتراكيون ولا فوضويون، ولا شيء من تلك الفرق التي يأكل بعضها بعضًا».

مقدرته الخطابية

هو أعظم خطيب أنجبته مصر الحديثة، وأول خطيب سياسي جهر بالاستقلال في عهد الاحتلال، وأول زعيم اتخذ الخطابة وسيلة لبعث الحركة الوطنية، ولا شك أن الحركة الوطنية مدينة لخطبه الجليلة الرائعة في ظهورها واتساع مداها، وكانت هذه الخطب من الحوادث الهامة في تاريخ الحركة القومية، كان خطيبًا مفوهًا يجيد الخطابة باللغتين العربية والفرنسية، والخطابة بعد الوطنية كانت أبرز الجوانب في شخصيته؛ كان إذا جلس في محفل خاص وتكلم مع الحاضرين يدوي صوته كأنه يلقي على السامعين خطبة من خطبه الرنانة، كان جهوري الصوت، يتكلم من أعماق

قلبه المملوء يقينًا وإيمانًا، وكان له سلطان روحي على من حوله من السامعين أو المخاطبين، وقد بدأت مواهبه الخطابية في الظهور وهو بعد في المدرسة الثانوية؛ إذ كان يخطب في جمعية الصليبة الأدبية وجمعية الاعتدال بمدرسة الأمريكان (ص٣٧)، فكان يسترعي الأنظار بفصاحة لسانه وصوته الرنان، وقد اختار مدرسة الحقوق «لأنها مدرسة الكتابة والخطابة» كما يقول في خطابه إلى شقيقه في (١٢ يولية سنة ١٨٩١م) مما يدلك على ميوله الخطابية وهو في هذه السن المبكرة. وإنك لتلمح مقدرته الخطابية في بداية حياته الوطنية من قول علي مبارك باشا له سنة (١٨٩٠م) وهو بعد طالب في المدرسة الثانوية «إنك امرؤ القيس»، ومن وصف الأستاذ محمد مسعود بك إياه سنة ١٨٩٦م (ص٨٤) بخطيب مصر المصقع، وأنه الذي إذا ارتقى منبر الخطابة ذلل له القول وسخر له الخطاب، وتابعه الكلام متفق القرائن مطرد السياق.

وقد كان في مواقفه الخطابية الكبرى يضع خطبه ويكتبها؛ ولكنه كان يلقيها على السامعين دون أن يقرأها، وكان له من قوة ذاكرته المدهشة ما يغنيه عن الرجوع إلى التلاوة في خطبة، وكانت مقدرته الخطابية باللغة الفرنسية لا تقل عنها في خطبه العربية، ولذلك نال إعجاب الأوربيين ممن سمعوه يخطب بالفرنسية، وكان هذا الإعجاب من أسباب علو منزلته السياسية والاجتماعية في أوربا وبين النزلاء الأوربيين في مصر.

مقدرته الصحفية

هو من عباقرة الصحافة في مصر والعالم، خلق صحفيًّا بفطرته، فأسس مجلة المدرسة وهو بعد في المدرسة الثانوية، فكان أول طالب مصري مارس الصحافة، كما أنه كان أول طالب خطب في الوطنية، وقد ولع بمراسلة الصحف في هذه السن المبكرة، وكتب في كبريات الصحف من مصرية وأوربية قبل أن ينشئ اللواء، ولما أنشأه سنة (١٩٠٠م) بعث في الصحافة روح التجديد والنشاط، فكان «اللواء»

نموذجًا للفن الصحفي، متنوع المقالات والأبحاث والأنباء، وكان أول ما صدر في أربع صفحات، ثم ما زال يرقى به حتى جعله في ثمان بعد إن استحضر له من أوربا آلة الطباعة الكبرى (روتاتيف). وكان يفيض بالأنباء البرقية الواردة إليه من الخارج على يد مراسليه، فضلًا عما كان ينشر من رسائل كبار الكتاب في مصر وأوربا، وصار كما قالت (الإجبشيان جازيت): «أكثر الجرائد العربية انتشارًا ليس في مصر فقط؛ بل في جميع العالم على الأرجح». ولم يكتف بإصدار اللواء اليومي؛ بل أصدر إلى جانبه (مجلة اللواء) الشهرية، ثم جريدة «العالم الإسلامي» سنة (١٩٠٥م).

وبلغت مقدرته الصحفية أوجها حين أصدر جريدتي: ليتندار إجبسيان وذى إجبشيان ستاندرد اليوميتين؛ فصار يصدر ثلاث صحف يومية كبرى، بثلاث لغات مختلفة، وهي مهمة تنوء بها العصبة أولو القوة من الرجال والجماعات، وقد كان يشرف بنفسه على تحريرها وإدارتها، وتتمشى روحه في كل كلمة منها، بحيث لم يؤخذ على أية صحيفة منها أنها نشرت يومًا مقالة أو نبذة تخالف روحه ومذهبه.

وكان للايتندار إجبسيان وذى إجبشيان ستاندرد محررون اختارهم الفقيد من صفوة الكتاب الفرنسيين والإنجليز، ومراسلون في باريس ولندن يرسلون إليهما تلغرافيًّا خلاصة كل ما ينشر في الصحف الأوربية عن مصر في حينه؛ فكانت الألوية تطالع قراءها يوميًّا بكل ما يهم مصر في الخارج.

ولما نشرت (الديلي تلغراف) حديثًا للخديوي عباس (ص٣٤٩) في مايو سنة (١٩٠٧م)، عقب استقالة اللورد كرومر، علم به الفقيد تلغرافيًّا من مراسل ذي إجبشيان ستندرد في لندن، فطلب إليه أن يوافيه بنصه حرفيًّا، فجاء نصه بالتلغراف في (١٤٤٥) كلمة، وكانت هذا أول مرة في تاريخ الصحافة المصرية والشرقية جاء فيها تلغراف بهذا الطول وهذه الأهمية.

وقد بلغ من تعلق الفقيد بترقية الصحافة ورفع شأنها أن أوفد بعثة صحفية إلى أوربا في أكتوبر سنة (١٩٠٧م) لدراسة فن الصحافة وإتقانه، وبدأ بإرسال سيد

أفندي علي أحد محرري اللواء وقتئذ إلى باريس، وانتظم على نفقة صاحب اللواء في سلك مدرستي العلوم السياسية والصحافة بباريس لمدة ثلاث سنوات، ولكن لم يطل مكثه هناك لمرض اعتراه، وقد عرض عليَّ الفقيد في تلك السنة -وكانت إذ ذاك طالبًا بمدرسة الحقوق- أن يوفدني في هذه البعثة الصحفية بعد حصولي على شهادة الحقوق، فقبلت هذه الثقة شاكرًا، ولكن المنية عاجلته قبل تخرجي من المدرسة.

كان مصطفى كامل يتولى عمله الصحفي المنهك، إلى جانب إشرافه على إدارة مدرسة مصطفى كامل، إلى جانب خطبه الرنانة التي كان يلقيها من آنٍ لآخر، وأحاديثه ومقالاته في كبريات الصحف الأوربية، وإطلاعه على الصحف والمؤلفات التي تكتب عن مصر وعن المسائل السياسية الكبرى العالمية، وإلى جانب ذلك يجتمع بأصدقائه وأنصاره وتلاميذه، ويفيض عليهم من أحاديثه وتعاليمه ما يملأ نفوسهم وطنية وإيمانًا، وكان إذ خلا إلى راحته يكتب الرسائل الخاصة إلى كبار السياسيين والكتاب في أوربا، مما لو جمع لصار عدة مجلدات، وقد جمع شقيقه علي بك فهمي كامل رسائله إلى مدام آدم، فجاءت كتابًا قيمًا ممتعًا، كان الفقيد يضطلع بهذه الأعباء كلها مجتمعة بهمة وكفاية ومقدرة منقطعة النظير.

فضله على الحركة الوطنية

هو رسول الوطنية والحرية لمصر والشرق جميعًا، وإن قيامه ضد أكبر دول الاستعمار -وهي في أوج قوتها- لهو مثال خالد للبطولة والإخلاص والتضحية، جدير بأن تحتذيه الأمم الشرقية في جهادها للحرية والمجد، وقد بينا كيف أنه كان باعث الحركة الوطنية الحديثة وموجدها، فلا نعود إلى هذا البيان، ولقد ظهرت هذه الحقيقة رائعة يوم الاحتفال بجنازته؛ إذ كانت إجماعًا من الأمة على الاعتراف بأن الحركة الوطنية هي غرس جهاده المتواصل طوال سني حياته، وسندعم هذه الحقيقة هنا بأقوال معاصريه في مصر وفي الشرق والغرب، فإن هذه الأقوال تستطلع منها شخصية الفقيد العظيم.

قال المغفور له الشيخ «علي يوسف» صاحب «المؤيد» في رثائه:

«كان في عمله كقائد الجيش يسير به إلى ميدان القتال، للحياة الفاخرة، أو للدار الآخرة، ذلك كان مبدأ صديقى القديم، وهذا شأن رصيفي العظيم، فكان من مبدئه يافعًا، إلى أن صار في الرابعة والثلاثين رجلًا كاملًا، مثال الهمة الشماء والذكاء والعزيمة ذات المضاء، والحركة الدائمة التي لا تني ولا تنثني، ذاهبًا في طريق الآمال ينشد لوطنه الاستقلال، فإليك أيها الصديق القديم، والرصيف العظيم، تحية محزون يعرف لك أكثر من كل إنسان خدمتك العظيمة التي خدمت بها وطنك فأيقظت من شعور المصريين ما قامت مظاهرات الأمس أكبر برهان على مقدار ما كان لك فيه من حسن الأثر ويد بيضاء، ويقدر جهادك العظيم في أوربا في سبيل الدفاع عن حقوق الأمة المصرية حق قدره، وأنَّى لمصر أن تجد بعدك صوتًا عاليًا إذا قال أسمع أوربا بأسرها وتردد صداه في الخافقين؛ بل أَنَّى لمصر بمن يملك إحساس شبيبتها كما كنت تملك، ويستفز شعورها كما كنت تستفز والأمة في حاجة كبرى إلى تنمية مثل هذه العواطف الشريفة».

وقال المرحوم مرقس حنا باشا (عضو الوفد المصري) في حفلة تأبينه: «إن العظمة والمهابة التي أحاطت بنعش المرحوم مصطفى كامل باشا يوم (١١ فبراير) المنصرم ذات دلالة صادقة أكيدة على أنه لم يكن صديقًا لفريق من المصريين؛ بل كان صديقًا لجميع الوطنيين على السواء، بكاه كل ساكن من سكان هذا البلد؛ لأنه قضى حياته كلها في بث روح الوطنية الحقيقية بين أهله وقاطنيه؛ بكيته أنا شخصيًّا لأني عرفته مثالًا للرجولة والشهامة والصداقة بكل معاني الكلمة، كان الرجل شفاءً لغلتنا، وإرواء لظمئنا. جئت أقول لكم كلمة واحدة هي حياة مصطفى كامل كلها، إن الأمة نمت وسمت وتغارست أغصانها حول جذع واحد هو مصر، هو الوطن العزيز، تلك الحقيقة التي لا ريب فيها، الفخر في إحيائها راجع إلى مصطفى كامل باشا».

وقال الشيخ «مصطفى القاياتي» في (مارس سنة ١٩٠٨م): «هذه الحياة القومية المدهشة والنهضة المصرية الفائقة إنما هما أثر من آثاره، ونتيجة من نتائج أعماله سيتوارثها الأبناء عن الآباء، وتبقى ما بقيت صفحات التاريخ».

وقال سعد باشا زغلول في خطبته بفندق شبرد يوم (٢٠ إبريل سنة ١٩٢١م): «اعلم أن البلاد تصبو إلى الاستقلال، وأن حركتها الاستقلالية بدت من زمان طويل، خصوصًا من يوم أن ظهر فيها المرحوم مصطفى كامل وتلاه المرحوم فريد بك، هؤلاء الذين أسسوا وأيدوا ما أسسوا في النهضة الحاضرة».

وقال في خطبته بالسرادق يوم (١٩ سبتمبر سنة ١٩٢٣م): «لست خالق هذه النهضة كما قال بعض خطبائكم، لا أقول ذلك ولا أدعيه، بل لا أتصوره؛ إنما نهضتكم قديمة تبتدئ من عهد مؤسس الأسرة المالكة محمد علي، وللحركة العرابية فضل عظيم فيها، وكذلك للسيد جمال الدين الأفغاني وأتباعه وتلاميذه أثر كبير، وللمرحوم مصطفى كامل باشا فضل غزير فيها أيضًا، وكذلك للمرحوم فريد بك».

وقال الأستاذ «أحمد لطفي السيد» عن مصطفى كامل[1]:

«لا أريد أن أطيل القول في مصطفى كامل، فحياته معروفة مشهورة؛ ولكني أقول موجزًا:

إن مصطفى كامل كان شعاره الوطنية، ووسيلته الوطنية، وغرضه الوطنية، وكلماته الوطنية، وكتابته الوطنية، وحياته الوطنية، حتى لبسها ولبسته، فصار بينهما التلازم الذهني والعرفي، فإذا ذكرت مصطفى كامل بخير فإنما تطري الوطنية، وإذا قلت الوطنية فإن أول ما يتمثل في خيالك شخص مصطفى كامل، كأنما هو والوطنية شيء واحد.

(١) من كتاب «قصة حياتي» للأستاذ أحمد لطفي السيد، كتاب الهلال، فبراير سنة (١٩٦٢م).

ولقد تمثل ذلك يوم وفاته في هذه المظاهرة التي لم تعرف لها في ذلك الزمان مثيلًا، فقد اشترك جميع أفراد الأمة في أمر واحد، على رأي واحد، بصورة واحدة مع اختلافهم فيما عداه.

كل هذا دل على أن الشعور الذي قادهم ليس مذهبًا سياسيًّا، ولا طريقة من طرائق المنازعة السياسية؛ بل هو أعلى من ذلك، هو التضامن القومي، والجامعة الوطنية.

إن مصطفى كامل كان تمثال الوطنية، ولقد دعوت في اليوم التالي لوفاته على صفحات الجريدة إلى إقامة تمثال له يشهد بالاعتداد بفضله في عمله، وتخليدًا لذكراه، واعترافًا من الأمة لكل عامل يقف نفسه على خدمتها، وتجسد لهذه الروح الطاهرة.

وقد شاعت هذه الفكرة بين جميع الطبقات، وفتحنا الاكتتاب على صفحات «الجريدة» وتكفلنا بالقيام بهذا العمل، ولو أننا لم نكن من حزبه السياسي؛ لأن مصطفى كان مصريًّا لجميع المصريين».

قال الأستاذ «أخنوخ فانوس» من خطبته في حفلة تأبين مصطفى كامل:

«إنه أنهض روحًا شريفة عامة بين طبقات وعناصر الأمة المصرية؛ روحًا وطنية شريفة، بل زهرة زاهرة عابقة نمت وعلت فوق هامة الأشراك المذهبية بناموس الرقي، فما مات مصطفى حتى أطلقت عبيرها بين الملأ، فأنعشت كامن الحب القومي الوطني الطبيعي، وكشفت في مصر عن حلقة وطنية صحيحة شريفة».

وقالت «الأهرام» في رثائه بقلم الأستاذ «داود بركات»: «ذهب «فتى مصر»، فكل قلم «مصري» ككل لسان مصري، وقف اليوم على تأبينه ورثائه، ومات مصطفى كامل، فالأمة التي كانت أقواله وسياسته وأفكاره شغلها الشاغل، هي الآن رهن الفجيعة به، والمصاب بفقده؛ بل إن أقلام خصومه الحادة التي كانت تتناوله كل حين بالغمز، وكل آونة بالتجريح واللمز هي اليوم أمام نعشه خاشعة

تقطر بالرثاء، بعد أن اتأدت، والداء يفت من جسمه، لا تقلق مضجعه ولا تشوك سريره؛ بل هي اليوم مثلها بالأمس، تعرف أنها كانت تنازل في منازلته فكرًا يؤلف به الأفكار، لا شخصًا في عقر الدار، ومذهبًا في السياسة هو صدى آمال أمة عظيمة، لا مذهبًا في العمل ينحصر في دائرة ضيقة، فلو لم يكن في مصر قوة ما جردت عليه قوات. إن الطريقة التي كانت عنوان مصطفى كامل هي الحرية في القول، والمجاهرة بما يضمر، والتذرع بالشجاعة في العمل؛ لأنه لا يميت الحقوق في الأمم مثل الجبن عن المطالبة بها، أو التطوح إلى ما وراء الغاية من الشجاعة، فحسبه مجدًا أن يسجل له في تاريخ أمته تلك الشجاعة وتلك الحرية؛ بل حسبه أن يكون مثالًا للناشئة، فهو أكبر معلم بما عمل».

وقالت مدام جولييت آدم في مقدمة كتاب رسائل الفقيد إليها:

«إن في نشر رسائل صديقي وابني مصطفى إحياء له بعض الشيء، على أن مواطنيه لذكره لحافظون، هل مات «مصطفى»؟ كلا؛ لأن أعماله وكتاباته وأقواله حية في أعماق قلوب أنصاره ومحبيه، وهو يحيا في تلك الشبيبة المصرية التي أخرجها من الظلمات إلى النور، ووقف نفسه على مستقبلها جسمًا وروحًا، لقد صار من رجال التاريخ، وهو حي في شخص الكل، والكل حي في شخصه، وما يجيء من الحوادث لن يغير شيئًا من صورته وعنوان مجده. وإن الفخر في تحقيق آماله حين تتحقق يعود عليه ويرجع إليه كله؛ لأنه لا شيء ينقص من فضل أول باعث لفكرة استقلال مصر، لقد قامت عند وفاة «مصطفى كامل» مظاهرات لم يصدر من أمة أخرى أعظم منها، وقد صار عمله كله حيًّا في قلب كل مصري؛ لأن كل مصري يفهم أن «مصطفى كامل» قد أحيا مصر؛ إذ نفخ فيها من روحه، وعندما كان يقول متباهيًا بلسان المغرم: أمتي! لم يكن يقولها بلسان الملك عن رعاياه؛ بل كان يحيي في نفسه بلاده ووطنه، وكان يحيي معهما؛ لأنه كان يحب أمته حبًّا لا يقوى عليه الموت!

وإن ما اخترته من رسائله لدال على أنه جدير حقًّا بلقب «الوطني» الذي أسبغته عليه أمته في كل شيء: الخطيب الوطني، ورئيس الحزب الوطني، ومثل هذا اللقب أعظم فخر يطمع في خادم الوطن، لقد كان «مصطفى كامل» يقول: إن هذا اللقب يحييني بحياة بلادي كلها، وهو جزائي الأعظم، واليوم يبعثه هذا اللقب حيًّا في نفس كل وطني مصري».

وقالت جريدة (الديبا) الفرنسية الشهيرة في (إبريل سنة ١٩٠٨م):

«إنَّ مصطفى كامل لم يوقظ أمته فقط؛ وإنما رباها أيضًا، بل يمكن القول بأنه هو الذي أنشأ الروح المصرية من العدم. لم تكن مصر قبله إلا قسمًا من الأقسام الجغرافية، ولم يكن سكانها إلا فرقًا منقسمين بعوامل الجنس والدين، متفرقين شيعًا على قدر ما في مصر من الأديان وما كان فيها من اختلاف المذاهب والمشارب والمطامع. لقد تولى محمد علي شئون مصر، فبعد بذله الجهد الجهيد نصف قرن من الزمن تمكن من إنشاء جنسية مصرية ممتازة عن الجنسية العثمانية؛ ولكنه لم ينشئ أمة مصرية؛ أمَّا مصطفى كامل فقد خرج من بين هذه الجموع المتنافرة المتخاذلة التي لم تعرف معنى للتضامن القومي، ولم تتذوق نعمة الوحدة الوطنية، وكان أول من نطق بنداء الوطن؛ نطق بهذا النداء ولم يكن قد تجاوز عشرين عامًا، ثم ما زال يبث هذه الفكرة السامية والروح الشريفة مدة أربعة عشر عامًا متتالية؛ تارة بالصحافة وطورًا بالخطابة، وأخرى بالمدرسة، ظل يبث هذه الفكرة بجهد عظيم أضعف صحته وقرب منيته. لقد أنشأ مصطفى كامل الوطن المصري. فهو بذلك قد أتم أشرف عمل أدبي يخلد له الذكر الحسن على مر الأجيال، وأضاف إلى هذا العمل الأدبي عملًا سياسيًّا، وهو السعي في تحرير مصر من رق الاحتلال الإنجليزي، وجعلها أهلًا لهذا التحرير، فعمل مصطفى كامل كان إذن أدبيًّا وسياسيًّا معًا».

ووصفه الكاتب الفرنسي (لويس برتران) في مجلة العالمين، وكان قد زاره وهو في أوج مجده، قال:

«قصدت شيخ الوطنيين مصطفى كامل باشا وزرته في داره، وقد كانت مدام جولييت آدم أعطتني كتاب توصية إليه، فاستقبلني رئيس الحركة الوطنية ومدير سياسة جريدة اللواء في غرفته بإدارة الجريدة، فأحسن وفادتي وأكرمني، دخلت غرفة الرئيس فعرتني دهشة؛ لأني وإن كنت لا أنتظر أن ألاقي شيخًا عربيًّا ذا لحية بيضاء، ولكن كنت أحسب أني ملاق رجلًا كبير السن، قوي الجسم، ساكنًا كما هو المعهود في الطبقة العالية من المسلمين. نعم عرتني دهشة لأني وجدت فتى شديد العارضة عظيم النشاط، لا يدل ظاهره على أن عمره يتجاوز الخامسة والعشرين، مع أنه في الحقيقة قد بلغ الثانية والثلاثين، رأيت رجلًا صغير الجسم، شاحب اللون، خفيف اللحم، تدل ملامحه على أنه رجل رقيق، عصبي المزاج؛ لكنه مع هذا الجسم الضئيل كان جهوري الصوت خطيبًا فطريًّا، فكلمني عن شيء من تاريخ حياته، ومن عجيب ما لاحظته أنه بالرغم من حبه وبغضه كان يحكم على الناس بفراسة عجيبة، من غير أن تخدعه صلة النسب أو رفعة الرتب. ثم إنه فوق ذلك خبير بدخائل السياسة الأوربية كل الخبرة، وبالرغم عن أني كنت وإياه وحدنا في غرفة، فإنه كان يخاطبني وكأنما هو يخطب في جمع عظيم. ومن مزاياه العجيبة أن له تأثيرًا في النفوس يضطرها إلى الإقناع بما يقول حتى أني لم أتركه إلا وقد انقسم فؤادي بين الميل الغريزي إليه، وما سمعته من قبل من خصومه، على أني كنت شديد الرغبة في مقابلته مرة ثانية، قابلته مرارًا وتحادثت معه كثيرًا، فعرفت فيه السياسي الحكيم الذي يعرف كيف يستخدم الظروف والفرص، وكيف يلين وكيف يقسو، وكان من رأيه ألا يعتمد على أوربا إلا قليلًا. وإن الثورة الحربية جنون، وكل عمله ينحصر في تقوية روح الوطنية والاتحاد بين مواطنيه، والمقاومة السلمية، وكان يحتقر مدنية لا غاية لها إلا الرقي المادي دون عناية بتحرير النفس أدبيًّا، فما كان أجمل جهد ذلك الشاب المخلص الذي نصب نفسه لمحاربة خصم قوي عنيد؛ مع أنه لا سلاح له إلا قلبه ولسانه!».

فضله على الوحدة الوطنية

إنَّ الفقيد هو أول من أسس الوحدة الوطنية وجعل لواء الوطنية يضم المسلمين والأقباط على السواء، كثيرون من الكتاب ينسبون هذا الفضل إلى سعد زغلول، وهذا خطأ تاريخي وإجحاف لا مسوغ له، والحقيقة أن مصطفى كامل هو صاحب الفضل في تأسيس هذه الوحدة، اعتبر ذلك في اصطفائه الأستاذ «ويصا واصف، ومرقص حنا باشا» وهما من خيرة الوطنيين الأقباط وضمهما إلى الحركة الوطنية، فكانا من أكبر أنصاره وأعوانه في الجهاد، وقد كان في خطبه ومقالاته يدعو إلى ارتباط المسلمين والأقباط في الجهاد الوطني.

قال في خطبته بالإسكندرية يوم (٨ يونية سنة ١٨٩٧م): «إن المسلمين والأقباط شعب واحد مرتبط بالوطنية والعادات والأخلاق وأسباب المعاش، ولا يمكن التفريق بينهما مدى الأبد» (ص١١٠).

وقال في خطبته بالإسكندرية يوم (٢ يونية سنة ١٩٠٠م): «كيف يستطيع رجل وطني أن يدعو للشقاق والبغضاء، وهذه الدعوة مناقضة للوطنية الصحيحة، فالأقباط إخوة لنا في الوطن تجمعنا أشرف رابطة، وقد عشنا معهم القرون الطوال على أتم وفاق وأكمل اتفاق» (ص١٥٧).

وتبدو هذه الروح الوطنية في كل أقواله وأعماله.

وليس أبلغ في الدلالة على أنه الموجد للوحدة الوطنية من شهادة المرحوم «مرقص حنا باشا» في حفلة تأبينه يوم (٢٠ مارس ١٩٠٨م) إذ قال عنه:

«ليس الأبطال قائدي الجيوش والقابضين على دفة الأساطيل، إنما الأبطال هم أولئك المتمسكون بالمبدأ القويم وأهدابه، الدائبون على السير في سبيله، حتى رفعوا قومهم إلى أوج الرقي والعلا، سار الفقيد في سبيله هذا ثابت الجأش، شديد المراس، لا يلوي على أحد ولا يقف به أمر، حتى فاز كما نوى، وأراد فكون الوحدة الوطنية،

وأرانا طريق الإخاء والحرية، وهدانا إلى السعادة الحقيقية، رسم لنا طريق الوفاق والتآلف، طريق الحرية والاستقلال، وهدانا الجمهور العظيم الذي نراه اليوم التف حول قبره، وقد ضم بينه جميع العناصر المصرية يقول لكم بأفصح لسان وأجلى بيان وأقوى حجة وأعظم بلاغة: «إن التآلف بيننا أصبح قاعدة ثابتة»، أن الشبيبة المصرية لا تعرف غير أنها الشبيبة المصرية، وألا واجب عليه سوى خدمة مصر والمصريين بلا تخصيص ولا تقسيم. هذا بناء مصطفى كامل، هذا عمل مصطفى كامل، وقد بدا لنا جني ثمره من الآن؛ لأن الاتحاد هو السلم الأول للوصول إلى الحرية والاستقلال».

تضحياته

سيظل اسم مصطفى كامل عَلَمًا للوطنية المنزهة عن الأهواء، ومثالًا للإخلاص والتضحية لا يمحوه الزمان، وتبدو روح التضحية في تاريخه من الطريق الذي سلكه في الحياة، لم يسلك الطريق السلطاني الموصل للرجاء والراحة، والأبهة والجاه، ونعني به طريق المناصب، ولو هو اختاره كما فعل معاصروه لبذهم جميعًا بذكائه وكفاءته ونشاطه، ولضمن لنفسه ولأهله وذويه طبقة بعد طبقة رغد العيش، والثروة الطائلة، والمراكز الممتازة، ولكنه على عكس ذلك، واختار الطريق الشائك، طريق الجهاد ضد الاحتلال وضد الحكومة معًا، ولم يكن هذا الطريق ليجلب لصاحبه نفعًا ولا جاهًا؛ بل هو طريق العقبات والمصاعب، والجهد والحرمان، فهذا الاختيار في ذاته يدلك على مبلغ ما فطرت عليه نفس الفقيد من الإخلاص والتضحية، والعمل لوجه الله والوطن فقط، وفي ذلك يقول في محاجة خصومه سنة (١٩٠٠م): «يمكنني اليوم أن أقول أمام الملأ كله: إنه لا يستطيع إنسان في العالم أن يدعي أني خالفت مبدأ من مبادئي لحظة واحدة، مع تغير الظروف وتقلبات الأحوال، وموت الآمال عند الكثير من الرجال، ولا يوجد من يقول: إني عملت ما عملت طمعًا في عز أو ثروة؛ لأنَّ الطامع فيهما لا يقف موقفي، ولا يجاهد ضد

الاحتلال، تحت سماء مصر، ولا يخطب ضد المحتلين حتى في الوقت الذي كان أخي في قبضتهم يعاملونه بالذل والاستبداد ويذيقونه أنواع العذاب وصنوف البلاء ويهددونه بالموت والإعدام في كل آن».

لقد ضحى إذن بمنافعه وراحته ومصالحه الشخصية في سبيل حياة الجهاد التي اختارها لنفسه، ولم يتحول عنها طول حياته، كما ضحى بمصالح أقرب الناس إليه وأعزهم عليه.

ذلك أول مظهر للتضحية في تاريخه، وهناك التضحية الكبرى التي تتضاءل بجانبها كل تضحية، وهو بذله حياته وشبابه في سبيل مصر.

فلقد رأيت مما بيناه في الفصل الخامس عشر (ص٢٧٢) كيف كانت جهوده أقوى مما تحتمل صحته، ذكر المرحوم فريد بك أنه رافقه في سفره إلى باريس ولندن في (شتاء سنة ١٩٠٦م) لاختيار محرري جريدتي ليتندار إجبسيان وذى إجبشيان استندارد، وأن المرض عاوده أثناء تلك الرحلة، ولزم الفراش بباريس عدة أيام عادة فيها الدكتور روبان الطبيب الشهير ونصح له بحضور فريد بك بعدم إجهاد قواه في العمل، وأن يترفق بصحته فلا يحملها فوق طاقتها من العناء، ويترفق كذلك بأمته فلا يحرمها وجوده حتى يتم مهمته التي وقف حياته عليها، قال فريد بك: ولكن النصيحة أتت بعكس ما كنا ننتظره؛ فإنه رحمه الله لما أحس بضعف قواه واستعداده للأمراض الفتاكة أسرع الخطى وضاعف الجهود، فأتم معدات اللواءين الفرنسي والإنجليزي، حتى ظهر في (مارس سنة ١٩٠٧م)، واستمر يجاهد ويبذل الجهود الجبارة طيلة سنة (١٩٠٧م)، كما تراه مفصلًا في الفصل الثالث عشر والفصلين التاليين.

مضى الفقيد في جهاده لا يلوي على شيء، ولا يكترث للأخطار التي تهدد حياته، فكان كالبطل المجاهد في حومة الوغى، يرى الخطر ماثلًا أمام عينيه، ومع ذلك لا يهاب الموت، ويتقدم الصفوف ويجود بحياته في سبيل الوطن، وهذا لعمري

أقصى درجات التضحية في الجهاد، فهو بحق باعث الحركة الوطنية ومحييها، ثم هو شهيدها وأكبر وأعظم ضحية لها، وإنه ليجدر بنا أن ننقش على قبره هذا البيت من قصيدة شوقي في رثائه:

يـا صـب مـصر ويـا شـهيد غرامهـا هــذا ثــرى مــصر فــنم بأمــان

obeikan.com